الصداء في رحلة ابن بطوطة اللواتي الطنجي
(753هـ / 755هـ) (1352م / 1354م).

أ.سياب خيرة/ جامعة بشار

ثقافته ووظائفه: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن يوسف اللواتي الطنجي"" المعروف بابن بَطُوطة" (2).

ولد في مدينة طنجة يوم الاثنين في السابع عشر من شهر رجب سنة 703 هجرية ، ويُنسب إلى قبيلة لواتة البربرية، التي انتشرت بطونها على طول سواحل إفريقية حتى مصر، وينحدر من أسرة عالية، أُتيح لكثير من أبنائها الوصول إلى منصب القضاء والنبوغ في العلوم الشرعية""(3)، وفي طنجة درس ابن بطوطة العلوم الشرعية وفقًا للمذهب المالكي السائد في أقطار المغرب، ولكن يبدو أنه لم يُتِمّ دراسته؛ لأن سنّ الحادية والعشرين التي خرج فيها للرحلة تدلّ على أنه لم ينتظر حتى يستكمل دراسة الفقه؛ لأن الدراسة في ذلك الوقت كانت تطول فلا يفرغ الشاب من دراسته إلا في حدود الثلاثين، والواضح أن رغبته في السفر والتجوال أعجلته عن إتمام الدراسة(4).

من أخلاقه الأصيلة أنه كان سريع التأقلم، ونعني به التكيف مع طبيعة الإقليم الذي يستقر به،والاندماج

لقد دلّت المهام التي تولاها ابن بطوطة , على أن الرجل ملم بثقافة أهمها الفقه بمعنى انه عارف بالفتوى , وقد كان للفتوى في هذه الفترة أهمية بالغة في إصدار الأحكام وفض النزاعات بين الناس, ما جعل سلطان تونس

أبو يحي زكريا يستدعي ابن بطوطه للقضاء , كما ذكر ذلك بنفسه " فقدموني قاضيا بينهم في أثناء ركبهم للحج ..."(5).

وحين زار جزر المالديف أكرم فيها من قبل الوزير سليمان مانيك, والذي يبدو انه أحب ابن بطوطة ,فأراد أن يكون قريبا منه , حيث عرض عليه ابنته للزواج إلا أنها رفضت وتزوج من قريبة لها يقول"وأكرهت على تولي القضاء ..."(6) ثم صار بعدها قاضيا بالهند , إنما أوكلت له هذه المهمة بحسب ما توفر عليه من معرفة بالفقه والحديث , والتي يبدو أن الرحلة الطويلة إلى المشرق كان لها الأثر البالغ في ذلك, ويبدو من خلال مدحه للسلطان الهندي , أن ابن بطوطة كان له زادا لغويا محترما, ما جعله يرتب شعرا في حق السلطان بقوله"(7):

إليك أمير المؤمنين المبجـــلا أتينا نجد السير نحوك في القلا
فجئت محلا من علائلك زائرا ومغناك كهف للزيارة أهــلا
فلو أن فوق الشمس للمجد رتبة لكنت لأعلاها إماما مؤهلا
فأنت الإمام الماجد الأوحد الذي سجاياه حتما أن يقول ويفعلا
ولي حاجة من فيض جودك ارتجي قضاها وقصدي عند مجدك سهلا

وقد باشر ابن بطوطة رحلته انطلاقا من أداء فريضة الحج، حيث أبدى اهتماما كبيراً بكبار المتصوفة وشيوخ الطرق الصوفية بمجرد وصوله إلى مصر حيث اتجه إليهم لملاقاتهم، وارتدى الخرقة الصوفية في بيت المقدس على يد شيخ الرفاعية، كما ارتدى الخرقة الصوفية في أصفهان على يد شيخ

السهروردية، وفي المرة الثالثة في الهند على يد شيخ الطريقة الجلالية , ومعروف أن ابن بطوطة وقبل أن يشرع بالسفر قد درس الفقه في طنجة كما سبق الذكر، وحينما وصل إلى دمشق ، اغتنم الفرصة وحضر مجال السماع ونال موافقة أربعة عشر أو خمسة عشر شيخا صوفيا هم من كبار الطرق الصوفية في ذلك العصر، لتحصيل العلم في مجالس الدروس التي كانوا يقدمونها لمريديهم واتباعهم و نقل الأحاديث عنهم (8) و الظاهر أن من ولي القضاء، لابد من أن يكون على حظ من العلم، و من خلال إشارات في رحلته يظهر ابن بطوطة ملما بالمذاهب الفقهية، و على صلة بالمذاهب العقدية(9).

مفهوم الرحلة"":

عرف الإنسان الرحلة أو الترحال بفطرته التي فطر عليها منذ بدا الخليقة , وقد ورد اللفظ في التنزيل الحكيم :" هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ "(10)؟'ومعناها لغويا ما يرتحل إليه يقال الكعبة رحلة المسلمين , وانتم رحلتي , أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ,وعالم رحلة ,ما يرتحل إليه من الأفاق(11) , وهكذا أما الباحث يوسف الشويري , , فقد أوجز حديثه عن معنى الرحلة بقوله ﴿وتحمل كلمة الرحلة , معنى مزدوجا , فهي تدل من جهة على الانتقال العلمي والتجول و السفر في قلب العالم...وترمز من جهة أخرى إلى الارتحال في اتجاه مفاهيم جديدة ..."(12), وإبرازا لدور الرحلة في التراث الجغرافي للعرب والمسلمين . يؤكد عبد الله محمد احمد المقدسي ، أحد أقطاب

التراث الجغرافي في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي أهمية رحلاته في أنحاء العالم الإسلامي من أجل المعاينة ، وجمع المادة العلمية التي سجلها في كتابه الشهير أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم فيقول في مقدمة كتابه : نحن لم نبق إقليماً إلا وقد دخلناه وأقل سبب إلا وقد عرفناه ، وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر في الغيب ، فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام أحدها ما عايناه ، والثاني ما سمعناه من الثقات ، والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب وغيره . وما بقيت خزانة تلك إلا وقد لزمتها ، ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفحتها ، ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفتها ، ولا أهل زهد إلا وقد خالطهم ولا مذكرو بلد وقد شاهدتهم حتى لي ما ابتغيته في هذا الباب﴾(13).

ولما كانت صناعة الرحلة حرفة أتقن المغاربة فنّها , كيف لا وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم في معنى حديثه اطلبوا العلم ولو في الصين أو كما قال , فقد كان المغاربة ذوي فضول زائد في ركوب الرحلات , ولذلك نجد ابن خلدون يقف على أن الرحلة شعور بالكمال , من خلال قوله في مقدمة العلوم"إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم , ذلك أن البشر يأخذون معارفهم , وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما , وتارة محاكاتا وتلقينا بالمباشرة إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين اشد استحكاما وأقوى رسوخا , فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات , ورسوخها , فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لا كتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ , ومباشرة الرجال "(14) .

رحلات ابن بطوطة:(15)

كاد المؤرخون والنقاد أن يتفقوا حول الطريق الذي سلكه ابن بطوطة في رحلاته حيث كان للمكان بعد كبير في تقسيم هذه الرحلة إلى ثلاثة مراحل, مرحلة أولى: تمثلت في الرحلة التي اعتادها المغاربة في خروجهم إلى الحج , ومرحلة ثانية تمثلت في الرحلة إلى الأندلس وأما الثالثة والتي ستتركز عليها هذه الدراسة وهي طريق الصحراء, أو المرحلة الأخيرة من رحلة ابن بطوطة , والتي سيتوقف بعدها ليخلد إلى الراحة بعد سفر استغرق وقتا طويلا , فكان النصيب الأوفر للمرحلة الأولى من هذه الرحلات, وقد كان خروج ابن بطوطة بحسب ما صرح به بنفسه في الرحلة رغبة في التعرف إلى تلك المناطق " ثم وصلنا إلى حضرة فاس، حرسها الله تعالى، فوادعت بها مولانا أيده الله، وتوجهت برسم السفر إلى بلاد السودان (16).

لقد ارتسمت في ذهن الرحالة ابن بطوطة صور لكل ما عاينه في طريق الرحلة , فتعدت رحلته بذلك أن تكون مجرد تصنيفا وصفيا للجبال والرمال والأنهار , يقول احد الباحثين"..ولهذا فانّ قيمة الرحلة في أنها صفحة من التاريخ الاجتماعي والإسلامي أكثر من أن تكون كتابا في تقويم البلدان والجغرافيا .."(17).

يقول الدكتور حسين مؤنس :"..ان الذي دفع ابن بطوطة للرحلة (سواء في المشرق أو المغرب او الصحراء), إنما مرجعه إلى حوافز دينية ,أولا : "تعطش الرجل إلى المعرفة , ثانيا :إضافة إلى وازع داخلي لدى ابن بطوطة , وهو حبه للمغامرة والجرأة على ركوب المصاعب , والتعرض

للمخاطر .."' ويذهب الباحث نفسه إلى القول :"..إن هذه الدوافع إنما تكشف لنا عن طموح رجل نبيل , الأمر الذي استرعى انتباه الغرب للعناية بهذه الرحلة أكثر مما عنينا بها نحن "(18).

إن حسين مؤنس في وقوفه على القيم الحضارية التي تنطوي عليها الرحلة ,يقف بذلك عند تلك الدقّة في تتبع مواضيعها (الرحلة) المتنوعة من خلال تتبع الباحثين الغربيين ,بحيث إنهم في كل مرة من إعادة طبع الكتاب ,كانوا يقدمون له بمقدمة جديدة , خاصة و أن الفصل الواحد , حسب المؤرخ حسين مؤنس , كان يتداول على دراسته الباحثين والثلاث منهم .

لقد حان الوقت في ظل توفر أدوات البحث ووسائله أن نتتبع تراثنا , من خلال بحث كل حقيقة جاءت في رحلة من الرحلات المغربية على الخصوص , إنما هو تتبع , بل إماطة اللثام عن دور حضاري لبعته هذه المنطقة فيما وصف الرحالة والذي خاطر بحياته , وهو يحمل هم أمته , في أن يجمع معارف وتجارب الإنسانية ,ليضعها بين أيدي الباحثين .

وبهذا يجد هؤلاء أنفسهم وبإلحاح أمام واجب تحقيق هذه المعارف , وإبراز خفاياها , سلبية كانت أو ايجابية .

رحلة الصحراء:

يقول الرحالة ابن بطوطة في بداية رحلته بطريق السودان عبر صحراء شاسعة :"..وتوجهت إلى بلاد برسم السفر إلى بلاد السودان , فوصلت إلى مدينة سجلماسة.."(19), في جنوب المغرب الأقصى , ويبدو أن ابن بطوطة

بحسب ما بدأ به كلامه عن الرحلة السودانية (وتوجهت برسم السفر)أراد أن يتخذ له طريقا معهودا لدى من خرج قبله إلى السودان ابتداءا بسجلماسة ,وهي المختارة الفريدة في نظر المقدسي""، مع تجارة غير منقطع لبلاد السودان وسائر البلدان وأرباح متوافرة.ويقول البكري"" عنها "سلجماسه مدينة سهلية جبلية... ولها بساتين كثيرة... وهي كثيرة النخل و الأعناب وجميع الفواكه... ومدينة سجلماسة في أول الصحراء ,ومن مدينة سجلماسة تدخل إلى بلاد السودان إلى غانة. وبينها وبين مدينة غانة مسيرة شهرين(20).

لقد توقف في هذه المدينة كما جاء في الرحلة أكثر من ثلاثة أشهر , فلا غرابة في ذلك , فالواضح أن الإلمام بكل ما يمكنه من هذه الرحلة , يريد أن يستجليه من العارفين بالطريق في هذه المدينة ,فابن بطوطة من أهل المغرب ويعرف جيدا أن سجلماسة هي نقطة وصل بين شمال وجنوب إفريقيا من خلال الدور الذي لعبته في تجارة المغرب مع السودان الغربي , ولاشك أن الوقت الذي قضاه ابن بطوطة في سجلماسة كان كافيا بالقدر الذي يحتاجه في الرحلة من خلال قوله: " واشتريت بها جمالا وعلفتها أربعة أشهر .."(21) وكان خروجه من سجلماسة إلى السودان في غرة شهر محرم سنة 753ه , في رفقة مقدمها أبو محمد يندكان المسّوفي وفيها جماعة من تجار سجلماسة وغيرهم فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوما إلى تغزى"(22).

وصف المدن:

أول ما يقف عنده بالوصف هو وصف مدينة سجلماسة التي جعل منها مدينة تضاهي مدينة البصرة, في المجال العمراني ,والزراعي على حد السواء , يقول في الرحلة :"..وهي من أحسن المدن و بها التمر الكثير الطيب

,وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر ,ولكن تمر سجلماسة أطيب .."(23), خرج ابن بطوطة في صحبة مقدم سجلماسة إلى جنوب الصحراء المغربية بقصد السودان , ولكن هذه المرة لن تدوم الرحلة إلا وقتا يسيرا , والسؤال الذي يطرح نفسه , ما هي ملامح الصورة التي سيعطيها ابن بطوطة لهذه البلاد في رحلته ؟, وما هو وزن تلك الصورة ؟ ما هي مجالاتها التي انطبعت في ذهن رحلتنا تلك؟ هو ما سنقف عليه من خلال هذه الدراسة.

وصف مدينة تغزى:

لقد وقف ابن بطوطة في رحلته على وضع بعض المناطق الاقتصادي, كمنطقة تغزى ,ا ن اهل هذه البلاد يقتاتون على تجارة المقايضة'(24), بالملح فهو مصدرهم الأساسي الذي يعتمدون عليه من خلال ما جاء في الرحلة "..إنما هي رمل في معدن الملح يحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة , كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض , يحمل الجمل منها لوحين ولا يسكنها إلا عبيد مسوفة وهم الذين يحفرون على الملح , ويتعايشون بما يجلب إليهم من تمر درعه و سجلماسة , من لحوم الجمال .."(25) كما يوقفنا ابن بطوطة إلى جانب اعتماد أهل تغزى في رزقهم على الملح ,على مصدر أخر يبدو انه قد ساهم في رفع الغبن عن أهل المنطقة في المجال الاقتصادي من خلال تعاملهم بما يسمى بالأعلاف ويتمثل في التجارة "بالقناطير المقنطرة من التبن " (26)بحسب وصف صاحب الرحلة الذي بدا متذمرا من أحوال المدينة الاقتصادية , كما أوقفنا على أن موردا ثالثا , وهو اكتراء أهل مسوفة كإدلاء على الطريق مقابل أجر مقداره مائة مثقال من

الذهب "(27) كما إن ظاهرة بيع الماء كانت موجودة عند أهل التكشيف من مسوفة وبرادمة ,"وتأتي الرجال من مسوفة وبرادمة , وغيرهم بأحمال الماء للبيع..."(28)وماء المدينة نتن , مما جعلها مرتعا للذباب والقمل , فيصف الماء بأنه"" ماء زعاق""(29), وان المدينة "أكثر المواضع ذبابا ", ويبدو أن ابن بطوطة قد اضطر إلى البقاء في المدينة فترة زمنية حددها في الرحلة بعشرة أيام , لعل ذلك راجع إلى انتظار التجار , وغيرهم من أصحاب المعاملات ممن كان مصاحبا له في هذه الرحلة ,ومن الظريف المفيد إن ابن بطوطة , وهو كعادة أي رحالة لا يغفل وصف وضع يصادفه , يوقفنا على ظاهرة تبدو علمية إلى حد ما من خلال قوله ""و الكمأة بتلك الصحراء كثيرة , ويكثر القمل فيها , حيث يجعل الناس في أعناقهم خيوطا من الزئبق فيقتلها .."(30)", أما الفائدة الثانية فهو أن صاحب الرحلة ومن صحبه لم يدخر جهدا في البحث عن مصادر المياه , وإنما ينم ذلك عن خبرة بمغاوير المياه , ومجباته , فرغم أن أهل تغزى لا يملكون إلا ماء الزعاق النتن الذي لا يستصاغ شربه فيما وصف ابن بطوطة إلا أن الماء بعد سقوط المطر ,كان له أماكن يتجمع فيها , وكان على أهل البلاد أن يجتهدوا في كيفية حفظه لمواجهة الجفاف , كما كان فعل أهل المغرب (القيروان و المهدية على سبيل المثال) "" (31).

يبدو أن الماء كان هاجس ابن بطوطة خاصة وهو يخوض طريقا مأهولا بالمخاطر والتي كان على رأسها قلة الماء , وذلك بوصفه أحوال الناس في الطريق , حينما يسرد علينا قصة وردته عن طريق المشافهة , وقد كانت

قافلته قد ضيعت رجلًا يدعى ابن زيري بقوله: "" ولقد لقينا قافلة في طريقنا , فاخبرونا إن بعض رجال انقطعوا عنهم , فوجدنا أحدهم ميتا تحت شجرة .. , وكان الماء على نحو ميل منه "(32)في إشارة منه إلى موت الجل عطشا .

وصف مدينة تسرهلا:

لا يجلب ابن بطوطة في المدينة غير وجود المصدر الأساسي للحياة ألا وهو الماء مصداقا لقول العزيز الحكيم ""وجعلنا من الماء كل شيء حيا"(33)" , وقوله جلا في علاه ""فلينظر الإنسان إلى طعامه , إنا صببنا الماء صبا , ثم شققنا الأرض شقا فانبتنا فيها حبا .."(34)"وقوله تعالى في موضع أخر "".وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلّت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء"(35)" ,إنها أهمية الماء بالنسبة للساكنة وهو الأمر الذي جعل ابن بطوطة لا يهتم بالوصف في هذه المدينة بشيء بقدر ما يقف عند وصفها بأنها مدينة تتوفر على ماء كثير ,وينبهر بذلك بقوله ""..وهي أحساء ماء تنزل القوافل عليها , ويقيمون بها ثلاثة أيام , فيستحرون و يصلحون أسقيتم , ويملئونها بالماء , ويخيطون عليها التلاليس(36) خوف الرياح.."(37)"

المسير إلى ايوالاتن:

يحتاج الذاهب إلى هذا الإقليم الصحراوي الواسع إلى رجل يسمى التكشيف ,وقد حمل هذا اللقب كل رجل مسوفي خرج لهداية الناس إلى مدينة ايوالاتن , وتمثلت مهمة رجل التكشيف فيما ذكره صاحب الرحلة أن

هذا الرجل كان يحمل رسائل إلى أصحاب ومعارف أهل القافلة ليكتروا لهم الدور في هذه المدينة ""فيتقدم إلى ايوالاتن بكتب الناس إلى أصحابهم بها , ليكتروا لهم الدور , ويخرجون للقائهم بالماء مسيرة أربع , و من لم يكن له صاحب بايولاتن , كتب إلى من شهر بالفضل من التجار بها .."(38)"وقد علم صاحب الرحلة بان صاحب التكشيف إن هلك في فيافي الصحراء , فان القافلة سيكون لها نفس المصير , أو لعل بعض أصحابها هلكوا , لعدم علم أهل ايوالاتن بهم إلا انه يعلم من جهة ثانية أن التكشيف أو ما يسمى الدليل حاليا إنما يعرف الطريق عن تردده عليه مرات عديدة بقوله:""والدليل هناك من كثرة تردده.."(39)"حتى انه يصف لنا دليل قافلته الذي كان ضعيف النظر كيف اهتدى إلى المدينة بهم نتيجة تعوده , ""..ورأيت من العجائب أن الدليل الذي كان لنا هو اعور العين الواحدة , مريض الثانية , وهو اعرف الناس بالطريق .."(40)"الذي كانت مسافته مقدار سبعة أيام بين مدينة تسرهلا وايوالاتن , حسب وصف صاحب الرحلة "..وفي ليلة اليوم السابع رأينا نيران الذين خرجوا للقائنا فاستبشرنا بذلك" .

وصف المدينة (ايوالاتن):

ينطبع الأمن على نفسية الإنسان فيجعل تعبيره ألحن ونظره ابعد , لقد أثرت في ابن بطوطة ظاهرة الأمن التي لمسها خلال الطريق التي انطوت على مسافات بعيدة , وفي ذلك إشارة إلى اهتمام أهل ايوالاتن بجانب العلاقات المغربية الصحراوية ومن ثم تامين وارداتهم الاقتصادية , وهي ظاهرة وردت لدى المجتمعات العربية منذ قبل الإسلام .

يقف ابن بطوطة على وصف المجال الصحراوي بالمناطق التي وصلها حيث يطلعنا على مورد رزق للناس تمثل في صيد البقر الوحشي المتواجد على أطراف المدينة , والذي يصطاد عن طريق الكلاب و آلة النّشّاب, فيقتل ويؤكل لحمه من قبل الايوالاتيين , بل وتعصر بطونه المملوءة بالماء من قبل المسوفيين ليشربونه"(41)" ,أما صحراء هذا الإقليم , فهي كما وصفها ابن بطوطة "ينشرح لها الصدر,لأنها منيرة مشرقة,إلا أنها كثيرة الحيات.."" , يقدم لنا صاحب الرحلة حادثة,يجد الباحث نفسه من خلالها أمام عدة قضايا :

الأولى :أن ابن بطوطة كان من في القافلة التي خرج ضمنها , أشخاص من المغرب الأوسط , ومنهم تاجر تلمساني يدعى الحاج زيان , وكان عارفا بمداعبة الحيات وصيدها .

الثانية :إن هذا الرجل في إحدى تعامله مع حية استخرجها من وكر ضبي , لسع وأصيب بوجع شديد .

الثالثة :وهي كيف واجهت القافلة هذه النازلة المرضية ؟

لقد أفادنا صاحب الرحلة في مسائل منها :

_اللجوء إلى التجربة في مواجهة الأخطار حيث قام ابن بطوطة بنفسه بكي إصبع التاجر لتلمساني إلا أن الألم لم يغادره"وزاد ألمه عشي النهار

"(42)"أي مساء ذلك اليوم .وإنما الألفاظ تعبر عن لغة العصر الذي استعملت فيه.

_أن الحية إذا كانت قد شربت قبل اللسع فقد ينجو المسموم .

_يوقفنا ابن بطوطة على حالة إنسانية أصابها الهلع جراء الإصابة بالسم , ما جعل رجل تلمسان يذبح جملا ويدخل إصبعه الملسوع في بطنه لعله يمتص السم , ولكن لا يجدي ذلك ويقطع في الأخير إصبعه , يقول صاحب الرحلة على لسان احد المسوفيين العارفين بطبيعة الصحراء بقوله :""..واخبرنا أهل مسوفة أن تلك الحية كانت قد شربت الماء قبل لسعه , ولو لم تكن شربت لقتلته ."(43)".

وفي سياق حديث ابن بطوطة عن إقليم ايوالاتن , وهو أول بلاد السودان التي حل بها هذا الأخر لم يغفل الإشارة في الرحلة إلى أنها تصل إلى حدود الشهرين من السير من سجلماسة إلى أول بلاد ايوالاتن ,""ثم وصلنا إلى مدينة ايوالاتن في غرة شهر ربيع الأول , بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة .."(44)".

وصف مجتمع ايولاتن:

لقد وصف ابن بطوطة عن تركيبة اجتماعية تشكل نسيج بلاد السودان , حيث يشير إلى وجود جالية مغربية بالإقليم , وقد مكنته الإقامة التي تجاوزت الشهرين من الاحتكاك بمختلف طبقات هذا المجتمع , حيث لا

يتحرج من ذكر قلة الاحترام التي عان منها التجار المغاربة على يد نائب السلطان في الإقليم المدعو فاربا حسن ,""..وهو يكلمهم بترجمان على قربهم منه , احتقارا لهم فعند ذلك ندمت على قدومي إلى بلادهم .."(45)"إلا انه يستدرك من جهة أخرى بان مجتمع المدينة كان في مستوى الكرم , والضيافة ""..وأكرمني أهلها وأضفوني .."(46), وفي ذات السياق يوقفنا على تركيبة المجتمع الايولاتيني , على انه يتكون من السكان الأصليين (السودان) ومن المغاربة كما ذكرت سابقا , ثم من أهل مسوفة القائمين على خدمة الوفدين من التجار من جهة , وخدمة أهل السلطة من جهة ثانية , بالإضافة إلى طبقة القضاة والفقهاء ,يقوله""وقصدت دار ابن بداء , وهو رجل فاضل من أهل سلا ..وأكرمني أهلها وأضافوني, منهم قاضيها محمد بن عبد الله بن ينومر , وأخوه الفقيه المدرس يحي.. "(47)" .

لقد نالت المسائل الاجتماعية اهتمام الرحالة ابن بطوطة حيث ذكر بعض العادات التي عجب لها في وصف سكان ايوالاتن من أهل مسوفة الوافدين بقوله :"..وأمرهم غريب فأما رجالهم فلا غيرة لديهم , ولا ينتسب أحد إلى أبيه بل ينتسب لخاله , ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه ..وما رأيت (ذلك) إلا عند كفار المليبار من الهنود , وأما هؤلاء فمسلمون ومحافظون على الصلوات , وتعلم الفقه وحفظ القرآن .."(48)".

لقد كان للمرأة حضور في تصوير ابن بطوطة الحالة الاجتماعية في ايوالاتن بقوله:""..وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال , ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات . ومن أراد التزوج منهن تزوج لكن لا يسافرن

مع الزوج ..لهن الأصدقاء و الأصحاب من الرجال الأجانب, وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات(49) , ودون قصد من ابن بطوطة يجد نفسه أمام واقعة تؤكد قوله الأول , حول هذه الظاهرة , وما يعجب له هو انتشارها بين طبقة الخاصة كالقضاة, يقول ابن بطوطة في الرحلة:""دخلت يوما على القاضي باويوالاتن بعد إذنه في الدخول , فوجدت عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن , فلما رأيتها ارتبت و أردت الرجوع , فضحكت مني ولم يدركها خجل , وقال لي القاضي : لم ترجع ؟ إنها صاحبتي, فعجبت من شانه فانه من الفقهاء الحجاج .."(50)", كما أن الرجل في هذه البلاد , لا غيرة عنده كما سبق الذكر على أهله , يوقفنا ابن بطوطة على مشهد لهذه المسالة في قوله كذلك ""دخلت يوما على أبي محمد يندكان المسوفي الذي قدمنا صحبته ..(فوجدت عنده) امرأة معها رجل قاعد ..فقلت له من هذه المرأة ؟ فقال هي زوجتي , فقلت ومن الرجل ؟ فقال : هو صاحبها ,فقلت له أترضى بهذا؟وأنت قد سكنت بلادنا وعرفت أمور الشرع ؟فقال : مصاحبة النساء الرجال عندنا على خير وحسن طريقة لا تهمة فيها , ولسن كنساء بلادك , فعجبت لرعونته , وانصرفت ولم اعد إليه أبدا"(51)".

الخروج من ايولاتن إلى مالي:

لقد وقف ابن بطوطة على وصف المسافات بين المدن , كوصفه لأحوال الناس , حيث يعطينا وبشكل مباشر المسافة التي تفصل ايوالاتن عن بلاد مالي على أنها ""مسافة أربعة عشرين يوما .."و يبدو أن العارف

المسوفي وبعض التجار هم الذين أمدوه بهذه المعلومات ذات الأهمية في تحديد خريطة المدن والقرى الصحراوية في تلك الآونة, وقد استأنس ابن بطوطة لهذا الطرق فوصفه بأنه كثير الأشجار والغابات , و به مجباة للمياه ,المنتشرة على طول الطريق , كما ان المدينة ونظرا لازدهار الزراعة بها فقد وجد لذلك مجموعة من الأسواق ,و لا يفوت صاحب الرحلة وصف الطعام الذي كان على جانب من الوفرة والتنوع , و أن العمران بها حسب الرحالة يفيد يسر أهل البلاد الواقعة على الطريق الرابط بين ايوالاتن ومالي .

على طول هذا الطريق يجد الباحث في الرحلة وصفا في غاية الدقة لكل ما يتعلق بحياة المجتمع الصحراوي , وبوصول القافلة إلى إحدى المدن تدعى زغارى المتواجدة على هذا الطريق يصف لنا ابن بطوطة تركيبة مجتمع متكون من عدة قبائل وجنسيات بقوله:""".. وبعد مسير عشرة أيام من اوالاتن , وصلنا إلى زاغري.. وهي قرية يسكنها تجار السودان , ويسمون نجراتة ..ويسكن معهم جماعة من البيضان , يذهبون مذهب الاباضية من الخوارج , ويسمون صغنغو ..(ويسكن معهم) السنيون المالكيون من البيض ويسمون عندهم توارى(52). ولما وصل ابن بطوطة إلى مكان يبعد نحو عشرة أميال من مالي، يقول "وعادتهم أن يمنع الناس من دخولها الا بالإذن. وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيض ,ليكثروا لي دارا، فلما وصلت النهر جزت في المعدية ولم يمنعني أحد(53).

الخروج من مالي:

من مالي توجه ابن بطوطة عبر نهر النيجر إلى ميمة ثم إلى تنبكتو. "ومن تنبكتو ركبت النيل في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة. وكنا

ننزل كل ليلة بالقرى فنشتري ما نحتاج إليه من الطعام والسمن والملح، بالعطريات وبحلى الزجاج.. ثم وصلت إلى بلد أنسيت اسمه، له أمير فاضل حاج يسمى فربا سليمان،ووجدت عنده كتاب المدهش لابن الجوزي، فجعلت أقرأ فيه"(54) ,إن هذا النص يوقف الباحث عند نقطة مهمة وهي وسائل النقل التي استعملها الرحالة والتي تنوعت بين المشي على الأرجل واستعمال الخيل والجمال إضافة المراكب البحرية كالسفن والقوارب ,إضافة إلى ذلك فان المجال المعرفي عند ابن بطوطة , والشغف لذلك موجود , حينما نجده ينتبه إلى مؤلف المدهش لابن الجوزي فلا يتوانى في مراجعته.

يقول ابن بطوطة: ثم سرت إلى مدينة كوكووهي مدينة كبيرة على النيل، من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها. فيها الأرز الكثير واللبن والدجاج والسمك، وبها الفقوس العناني الذي لا نظير له. وتعامل أهلها في البيع والشراء بالودع، وكذلك أهل مالي. وأقمت بها نحو شهر. وأضافني بها محمد بن عمر، من أهل مكناسة، وكان ظريفاً مزاحاً فاضلاً، وتوفي بها بعد خروجي عنها. وأضافني بها الحاج محمد الوجدي التازي، وهو ممن دخل اليمن، والفقيه محمد الفيلالي إمام مسجد البيضان (55) ثم سافرت منها برسم تكدا في البر، مع قافلة كبيرة للغدامسيين. (56)

ثم وصلنا إلى بلاد بردامة وهي قبيلة من البربر، لا تسير القوافل إلا في خفارتهم... (ثم) وصلنا إلى مدينة تَكِدّا... وديار تكدّا مبنية بالحجارة الحمر وماؤها يجري في معادن النحاس... ولا زرع بها الا يسير من القمح يأكله التجار والغرباء... ولا شغل لأهل تكدّا غير التجارة. يسافرون كل عام

إلى مصر ويجلبون من كل ما بها من حسان الثياب وسواها... ومعدن النحاس بخارج تكدّا يحفرون عليه في الأرض ويأتون به إلى البلد فيسكبوه في دورهم. يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم، فإذا سبكوه نحاسا أحمر صنعوا منه قضبانا... وهي صرفُهم يشترون برقاقه اللحم والحطب ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح. ويحمل النحاس منها تكدّا إلى مدينة كوبر..ومدينة برنو على مسيرة أربعين يوما من تكدّا" (57) وبذلك يصور هذا الرحالة البلاد من الناحية الاقتصادية إذ يبدو أن النحاس كان المصدر الأساسي في هذا المجال ,فبالإضافة إلى انه كان يستعمل في التبادل التجاري مع البلدان المجاورة فقد ساهم في تمدين تكدا حيث استعمله آهل البلاد بعد تحويله في جلب المياه إلى البيوت و مختلف المرافق الأخرى ما أدى إلى ظاهرة اليسر في الأوساط الاجتماعية التكدّية .

من تكدّا عاد ابن بطوطة "ولما عدت إلى تكدا، وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السجلماسي، بأمر مولانا أمير المؤمنين ..آمراً لي بالوصول إلى حضرته العلية"(58) .مما جعل ابن بطوطة يلبي دعوة سلطانه برسم السفر إلى فاس يقول:"ووصلنا إلى الموضع الذي يفترق فيه طريق غات الآخذ إلى مصر وطريق توات ... وسرنا من هناك عشرة أيام إلى بلاد هكار."(59) ومن توات عاد ابن بطوطة إلى سجلماسة ومنها إلى فاس أين استقر بجوار السلطان حيث هيأ له من يقيد رحلته فكانت رصيدا تراثيا أضافت ولا تزال تضيف من خلال بحث فصولها ما يغني المكتبة العربية والإسلامية .

شهادة علماء الغرب على قيمةالرحلة:

يقول الباحث الياباني ياموتو: "إنه من العسير القول بأن جميع حكايات ابن بطوطة عن الصين هي من نسج الخيال وحده، حقًا إن وصفه لتلك البلاد يشمل عددًا من النقاط الغامضة، ولكنه لا يخلو أحيانًا من فقرات معينة تعتمد على ملاحظة مباشرة عن الصين، فضلاً عن أنه من المستحيل القول بأن رواياته التي وجدت توكيدًا في المصادر الصينية وفي أسفار ماركو بولو قد كانت من تلفيق مخيلته.. (60) اما المستشرق الروسي كراتشكوفسكي فيعتبره: "آخر جغرافي عالمي من الناحية العلمية، أي أنه لم يكن نقَّالة اعتمد على كتب الغير؛ بل كان رحالة انتظم محيط أسفاره عددًا كبيرًا من الأقطار، وقد جاوز تجواله مقدار مائة وخمسة وسبعين ألف ميل، وهو بهذا يُعَدُّ منافسًا خطيرًا لمعاصره الأكبر منه سنًا (ماركو بولو) البندقي الإيطالي1323 -1254) م)، الذي دفعه حب الأسفار إلى اجتياز كل آسيا عن طريق منغوليا، وعاد عن طريق سومطرا، والذي عهد إلى كاتب له في إخراج مذكراته إخراجًا أدبيًا، واسمه (كتاب ماركو بولو) . (61)

وقالت كلاوديا ماريا تريسو –التي حاورتها قناة الجزيرة نت أثناء زيارة لها لمدينة الناصرة داخل أراضي 48 للقاء أصدقائها–إن ابن بطوطة عالم صالح رجال العالم رغبة في التعرّف على الشعوب ليقص تقاليدهم وعاداتهم للأجيال القادمة "وأرجو أن يكون نقلي لتلك الرحلات من العربيّة للإيطاليّة حلقة من حلقات هذه السلسلة في سبيل السلام والاحترام المتبادل".

خلاصة القول: إن نصوص الرحلة هي مدونات لأشخاص كان همهم الأساسي تقييد ملاحظاتهم خلال السفر، ووصف ما وقفوا عليه من أحداث وظواهر، حيث أنهم أضافوا إلى ذلك انطباعاتهم وأفكارهم، فلم تكن الرحلة في نظرهم سفرا في الزمان والمكان فحسب, بل كانت تدبر وإمعان في المشاعر والأفكار والتصورات، كما كان لها دور في إبراز المكون المعرفي بطرح القضايا الفكرية واستحضار الموروث الأدبي شعرا ونثرا، و إظهار المعتقد الديني ، بحيث إن كل رحلة تبدو عالما خاصا بمفرده، لا يجمعه بغيره سوى موضوع الارتحال والسفر, وعليه فقد كان ابن بطوطة يتمتع بقدرته على تذكُّر ما رآه في رحلاته، على الرغم من مرور السنوات، وتعدُّد المناطق التي زارها، وكان ما يميزه أيضًا أنه ذكر حقائق لأول مرة ,لم تُذكَر عند غيره، فقد ذكر استعمال أوراق النقد في الصين، وأشار إلى استخدام الفحم الحجري(62) على سبيل المثال.

الهوامش:

(1)يقول العلامة عبد الله كنون: "خرج ابن بطوطة من طنجة مسقط رأسه في سنة 725هـ (1325م) يجوب أقطار العالم، واخترق بلاد المغرب ومصر والشام وبلاد العرب وبلاد الروم وقسطنطينية، وفارس وخراسان وتركستان والهند وسيلان والصين وجزائر الهند الشرقية، واخترق في عوده قلب إفريقية من السودان إلى بلاد النيجر، ووقف على كثير من مجاهل بعض الأقطار والأمم التي لم تكن معروفة يومئذ تمام المعرفة، ووصل إلى أعالي نهر النيجر، وإلى تِمبوكْتو وسكوتُو قبل أن يصل إليها الرواد الأوربيون ويكتشفها الرحالة الإنجليزي ننجو بارك بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون، وسلخ في رحلاته نحو ربع قرن، وترك لنا عن أسفاره واكتشافاته ومشاهداته، ذلك الأثر الذي يعتبر بحق من أبدع آثار السياحة والاكتشاف"... عبد الله كنون: *ابن بطوطة*" (منشورات إيسيسكو، 1996, ص, 14-15.

(2)ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة, دار الجيل بيروت/ 5/ 227.

(3)د/ عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب, 1984 دار الفكر المعاصر ص559

(4)حسين مؤنس: ابن بطوطة ورحلاته, تحقيق ودراسة وتحليل , ص17.

(5) ابن بطوطة , الرحلة (تحفة النظار في عجائب الأمصار وعجائب الأسفار). ص05

(6)ابن بطوطة , نفس المصدر , ص295

(7)ابن بطوطة , نفس المصدر , ص258

'(8)د. محمد علي موحد: ابن بطوطة وعصره المؤتمر الدولي الأول الدوحة, 2010 .

(9) ينظر في هذا :كلامه عن ابن تيمية في رحلته .

(10)سورة الملك/ آية 15

(11)المعجم الوسيط.

(12) يوسف الشويري: يوسف الشويري / ,الرحلة العربية / , نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ ,1998 ,/ مقدمة الكتاب.

(13) شمس الدين أبو عبد الله المقدسى / ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم/ ، بيروت / ، مكتبة خياط ، 1906 ، المقدمة والجزء الأول

(14)ابن خلدون/ , المقدمة/ , بيروت / , / 2002/ ,ص539/ 540 .

(15)وقد طبعت رحلة ابن بطوطة في باريس مع ترجمة فرنسية في منتصف القرن التاسع عشر على يد المستشرق ديفريمري وسانجنيتي، وطبعت في القاهرة طبعتين عربيتين، ونشر الأستاذ جب ملخصًا لها بالإنجليزية في سلسلة (Broodway Travellers) عام 1929م، كما طبعت في لبنان في سلسلة الروائع اللبنانية، تحقيق فؤاد أفرام البستاني، وكذلك تُرجمت إلى كثير من لغات العالم؛ مما يدل على مدى أهمية تلك الرحلة. انظر:أحمد رمضان أحمد:/ الرحلة والرحالة المسلمون/ ص384.

(16 بطوطة , ابن نفس المصدر ,ص338

(17)دائرة المعارف الإسلامية .

(18) انظر حسين مؤنس , . حسين مؤنس: ابن بطوطة ورحلاته , تحقيق ودراسة وتحليل , ص17 ..

(19) بطوطة , ابن نفس المصدر , ص338

(20) البكري أبو عبيد الله (ت487ه) ، المسالك والممالك، طبعة: 1968، ص: 148.

(21)نفس المصدر , ص338

(22)نفس المصدر , ص338

(23)الرحلة , ص338

(24)المقايضة: لم يكن النمو البشري بمنأىً عن احتياجه لتطوير نظامه الاقتصادي، فمع تزايد النمو السكاني على الأرض تكونت المجتمعات واستوطنت مناطق مختلفة وتوسعت احتياجاتها للسلع، وتنوعت طرق ووسائل الحصول عليها. وقد أدى ذلك التنوع في السلع إلى أهمية إيجاد نظام للتبادل بصورة عادلة بحيث يستفيد الأفراد من تبادل ما يتوفر لديهم من السلع والخدمات، وكانت تلك البداية في تنظيم عملية التبادل لإشباع حاجات الفرد بأسلوب المقايضة السلعية، وهو النظام الذي يتم فيه تداول السلع وتبادلها بين الأفراد بدون استخدام النقود. وفي هذه المرحلة وضعت معايير لقياس القيم من السلع المطلوبة والمعروضة، مثال ذلك: كمية معينة من الحبوب تعادل عدداً معيناً من الحيوان أو الطيور أو انظر: مقال بعنوان "التطور التاريخي للنقود والتطور النقدي في مواد زراعية أخرى . اليمن" أ/ هناء عبدالرحمن سعيد, على الموقع الالكتروني

(25)الرحلة , ص338

(26)الرحلة , ص338

(28)الرحلة نفس الصفحة340

(29)الرحلة ´, 338

(30) الرحلة نفس الصفحة

-. تعدّ أماكن خزن المياه أهم المرافق العامة للتجمعات السكانية البعيدة عن الماء، وذلك 31 لضرورتها في تأمين احتياجاتها من هذه

(المادة، سواء للشرب أو لري المزروعات. ومن هنا اهتدى الإنسان إلى طريقة يضمن بها وجود الماء، حيث ابتكر الصهاريج، وهي عبارة عن خزان صناعي لتخزين المياه واستخدامها في وقت الحاجة إليها. عن مقال ل خالد عزب : بعنوان كيف واجهت الحضارة الإسلامية مشكلة المياه ,على الموقع الالكتروني.

(32)الرحلة , ص339

(33)سورة الأنبياء..آية 30

(34)سورة عبس, الآيات 24/ 25

(35)سورة الأعراف آية 57

(36)التلاليس:وقد ورد اللفظ لدى ابن القاسم. قال ابن القاسم، في النواتية الذين يحملون التلاليس إلى البر فتسقط في البحر: إنه من المشتري.

(37)الرحلة , ص339

(38)الرحلة , ص339

(39)الرحلة , ص339

(40)نفس الصفحة

(41)انظر تفاصيل هذه الحادثة في الرحلة , ص339

(42)الرحلة , ص340

(43)الرحلة , ص340

(44)الرحلة , ص340

(45)نفس المصر 340

(46)نفس المصدر , ص340

(47)نفس المصدر , ص340

(48)الرحلة , ص341

(49)نفس المصدر , ص341

(50)الرحلة , ص341

(51) الرحلة , ص341

(52)-عن القبائل التي شكلت النسيج الاجتماعي للسودان , انظر كتاب بعنوان ""الغرّابة ,الجماعات التي هاجرت من غرب افريقيا واستوطنت سودان واد النيل , ودورهم في تكوين الهوية السودانية "" , للدكتور عبد الله الماجد ابراهيم / دار الحاوي للطباعة والنشر والتوزيع.

(53) الرحلة, ص 349

(54) الرحلة ص 349

(55) الرحلة , ص 349

(56) الرحلة , ص 350

(57) الرحلة, ص 350

(58) الرحلة , ص 351

(59) الرحلة , ص 352

(60) د/ عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص563

(61) انظر تفاصيل ه\ه المعلومات المستشرق الروسي كراتشكوفسكي :تاريخ الادب الجغرافي العربي ,ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم , القسم الاول , دار الثقافة , جامعة الدول العربية , ص 421,422, 424,425

(62) مجموعة من العلماء: موسوعة الشروق 1/ 16